الربط النحوي في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري (الربط بالأدوات)

الباحث/ ماجد بن علي بن أحمد الحسيني (*)
د/ فضل يوسف زيد (*)

المقدمة:

عني النحاة والبلاغيون بالعلاقة الناشئة بين جملتين متجاورتين في معرض التأصيل لمدار واسع هو مدار الفصل والوصل[١]، ونشأ عن هذا الاعتناء مباحث نحوية ودلالية تفرعت عن ذاك المدار منها قضية تقسيم الجمل إلى ابتدائية واستئنافية، ودفعهم ذلك إلى نقاش قضية العطف بين الجمل ودلالته ومتى يلزم ومتى يترك؟ ومنها قضية الجمل التي تحل محل المفرد فتتحمل إعرابا وتلك التي لا يمكن أن تحل محله فلا يكون لها محل إعرابي، حتى عدَّ الجرجاني «**العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل، من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد الأخرى من أسرار**

(*) جامعة السلطان قابوس.
(*) جامعة السلطان قابوس.

١) في حين توزعت المباحث النحوية في أمات الكتب النحوية كانت قضية الفصل والوصل مكتملة الأركان عند البلاغيين، ينظر عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، شرح وتخريج ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م. القول في الفصل والوصل، ص: ٢٣٩ وما بعدها، وينظر أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى: ١٣٧١هـ/١٩٥٢م. الفصل الثاني في ذكر المقاطع والقول في الفصل والوصل، ص:٤٣٨ وما بعدها، وينظر أبو بكر محمد السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. الفن الرابع: الفصل والوصل والإيجاز والإطناب، ص: ٢٤٨ وما بعدها.

البلاغة»[1]ويقرر بعد تفصيل لثلاثة أضرب من حال الجملة مع الجملة أن: «**ترك العطف يكون: إما للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين، فاعرفه**»[2]. واختلفوا بعد ذلك في الاصطلاح على وصف العلاقة بين الجمل على أقوال عدة منها التعليق والإتباع والوصلة والربط[3]، وكان أن آثر النحاة اللاحقون والبلاغيون ومنهم الجرجاني مصطلحَ الربط فشاع استعماله، ووافق هذا المصطلح أساس اللسانيات النصية القائم على الترابط بمستوييه الشكلي والدلالي.

ويفهم من مجموع استعمالات اللغويين لمصطلح الربط أنه يقصد به توفر علاقة ارتباط بين جملة أو أكثر بما قبلها، ويكون هذا الارتباط حاصلا بأداة أو بغير أداة، والحديث عن الروابط لم يسلم من الاختلاف فيما يدخل تحته مما يخرج، فهناك الربط بأدوات العطف وقريب منها أدوات الاستئناف لأنها تكاد تكون نفسها حيث يذكر سيبويه ثماني من أدوات العطف في حروف الاستئناف ولم يخرج منها سوى اثنتين هما (لا/ إما)[4] والحروف المشتركة هي: (الواو والفاء وثم وأو وأم وبل

---

١) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:٢٣٩

٢) نفسه، ص:٢٥٤

٣) انظر: مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان، مصر، الطبعة الأولى ١٩٩٧م. ص١٩١وما بعدها، وانظر: جمعة الخباص، نظام الربط في النص العربي، كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع– مصر، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م. ص١٥ وما بعدها، حيث تابع المؤلفان فيهما تطور المصطلحات الواصفة للعلاقة بين الجمل عند اللغويين وشبه استقرارهم على مصطلح الربط.

٤) (إما / لا) لا يكونان للاستئناف لأن (إما) ملازمة للواو؛ ولذلك عدها يونس والفارسي وابن كيسان غير عاطفة. انظر مغني اللبيب ج١/ ١٢٦–١٢٧، ومن شروط (لا) العاطفة أن يتقدمها إثبات. انظر مغني اللبيب، ج١/٤٦٨–٤٦٩.

ولكن وحتى)[١]، وهناك الربط بالضمير العائد وواو الحال، والربط بالاسم الموصول، والربط بأدوات الشرط والأدوات الواقعة في جوابها، والربط بالأدوات الواقعة في جواب القسم[٢]. ويلحظ أن هذه الأنواع كلها ترد إلى الربط بالأداة، ونجد فيها خلطا بين الربط بالضمير والربط بالأداة والفرق بينهما بيّن، والأصوب جعل الضمير ومثله الاسم الموصول واسم الإشارة في الربط بالإحالة لما تحتمله من تعريف وإعادة ذكر لما يعرفه السامع، ومن هنا صح أن تحتل موقعا إسناديا بخلاف الأداة التي تقوم مهمتها على ربط المعنى وشد أطرافه كالعطف والشرط وجواب القسم وواو الحال.

الأصل إذن عند اللغويين في العلاقة بين جملتين مترابطتين نحويا أو دلاليا هو وجود الرابط ولذا عمدوا إلى تقديره عند غيابه كتقدير ضمير صلة الموصول واشتراطه في الحال، حتى أنهم قدروا عبارات كاملة وأسئلة مكتملة وصلا بين الجمل في الانقطاع الظاهر، يقول الجرجاني معرض حديثه عن بيت الشاعر:

قال لي: كيف أنت فقلتُ عليلٌ سَهـرٌ دائِـمٌ وحـزْنٌ طـويـلٌ

«لما كان في العادة، إذا قيل للرجل: كيف أنت فقال "عليل" أن يسأل ثانيا فيقال: (ما بك وما علتك)؟ فقدر كأنه قد قيل له ذلك، فأتى بقوله: (سهر دائم): جوابا عن هذا السؤال المفهوم من فحوى الحال» [٣]. فانظر إليه كيف يبين أمر الانقطاع بحكم العادة في الجواب عند المتكلمين، إمعانا في التأكيد على ضرورة سلاسة عملية التواصل وانبنائها على قدر من التواطؤ والتفاهم بين طرفيها.

---

١) سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل–بيروت، الطبعة الأولى. ص: ج١/٤٣٥

٢) انظر: جمعة الخباص، نظام الربط في النص العربي، فقد تتبع فيه المؤلف أنواع الربط وأدواته في كتب عينة من النحاة في الاستعمال والاستشهاد، الفصل الأول ص: ١٣–١٥٧

٣) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:٢٥٠

وقد قصر بعض الباحثين إمكان بناء الربط بين جملتين بغير أداة في علاقة واحدة هي البيان والتفسير[١]، بينما أوصلها بعضهم إلى إحدى عشرة علاقة[٢]، على أن الأخير يعني –على وجه الدقة– مواطن عدم الحاجة إلى الرابط لنشوء العلاقة؛ لأنها علاقة وثيقة كعلاقة الإسناد، ويكون ذلك في العلاقات بين المفردات لا الجمل؛ لذا يذكر من العلاقات علاقة التعدية بين الفعل والمفعول به، وعلاقة الإضافة بين المضاف والمضاف إليه، وعلاقة الحال بصاحبها، والعلاقة الظرفية، وعلاقة التحديد بين الفعل والمفعول المطلق، والعلاقة السببية بين الفعل والمفعول لأجله، وعلاقة التمييز بين التمييز والمميز، والعلاقة الوصفية بين النعت والمنعوت، وعلاقة الإبدال بين البدل والمبدل منه، وعلاقة التأكيد بين التأكيد والمؤكد، وظاهرٌ أن الباحث نظر في تعديداته هذه إلى مصطلح الربط في عمومه أي وجود علاقة ارتباط بين جزئين لغويين في التركيب، ولم يفرق بين الربط الكائن بين المفردات والربط الكائن بين الجمل، فهذه العلاقات لا تدخل في مجال الربط بين الجمل؛ لأن العلاقة بين الفعل والمفعول به والصفة والموصوف والمضاف والمضاف إليه (وغيرها من الحالات المذكورة آنفا) لا تحتاج أصلا إلى رابط لفظي، فما زال طرفا العلاقة في كيان الجملة الواحدة، فليس هناك حاجة إلى رابط من أدوات العطف أو الشرط أو غيرها.

وقد اعترض دي بوجراند على من يحصر الربط في وسائل تعنى بالجانب السطحي فقط مثل الإضمار والإبدال والحذف، ويرى أن يعطى الجانب الدلالي غير الملفوظ (معرفة العالم) انتباها أكبر حتى «**تصبح بها هذه الوسائل ممكنة**

---

١) انظر: الأزهر الزناد، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، طبعة أولى ١٩٩٣م. ص: ٢٨

٢) انظر: مصطفى حميدة، مرجع سابق، ص: ١٦٣

ونافعة»[١]، ولذلك ألحق عنصر (الربط) حين ذهب يعدد وسائل السبك[٢]، والربط هو ما يسمح بمجاوزة الجانب الشكلي والإشارة إلى علاقات عائدة إلى معرفة العالم المفهومي، تحقق غايات منها التقابل والسببية والاستبدال والتمييز أو الفصل والتخيير والاستدراك والتبعية[٣]، ويدفع دي بوجراند هنا بمفهوم الربط إلى معنى أوسع باعتبار النظرة العليا للنص، فهو لا يستغني عن الربط المادي الملفوظ داخل المتتالية الجملية ويعده معيارا للترابط، ولكنه يسمح بعلاقات ناشئة بين/وداخل المتواليات الجملية لا يكون منشؤها وجود وسيلة لفظية، بل ينبغي معها التعويل على الدلالة ومعرفة العالم المفهومي مثل فكرة العموم والخصوص، والكلية والجزئية، والسببية، ويضح أن هذا التقرير -من وجهة نظر دي بوجراند- يصدق في حالة العلاقة بين المتواليات الجملية لا بين الجمل داخلها؛ لأننا نجده في موضع آخر يحصر -أو يكاد يفعل- علاقة اجتماع جملتين بغير رابط في مطلق الجمع لمجرد المجاورة؛ لأنه إن كانت الرابطة للتخيير أو الاستدراك فإنه لا بد من ذكر الرابط المناسب لهما، مصرحا في الوقت عينه بعدم وجوب ذلك في مطلق الأحوال[٤]، وهذا الاضطراب في رأيي عائد إلى صعوبة إقامة رائز بين السبك (الاتساق) والحبك (الانسجام)، وإلى عدم وضوح الحدود بين ما هو من مجال النحو المحض وما هو من مجال الدلالة؛ لأن التعالق الشديد بين

---

١) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة-مصر، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م. ص: ٢٩٩

٢) ذكر دي بوجراند ثماني من وسائل السبك معتبرا ما تضيفه هذه الوسائل من رفع كفاءة الصياغة النصية وهي: إعادة اللفظ، والتعريف، واتحاد المرجع، والإضمار بعد الذكر، والإضمار قبل الذكر، والإضمار لمرجع متصيد، والحذف، والربط. انظر المرجع نفسه ص: ٣٠١

٣) انظر المرجع نفسه، ص:٣٠١-٣٠٢

٤) انظر المرجع السابق، ص: ١٥٧

المستويين من خصائص اللغة في حد ذاتها. ومن هنا كان تقسيم البحث في الترابط النصي إلى ترابط شكلي وترابط دلالي، مع الاعتراف بصعوبة الفصل بينهما في الواقع، ولضرورة إحكام المنهج ينبغي جعل وسائل الربط النحوي في قسم الترابط الشكلي، وعلاقات الربط الدلالي في قسم الترابط الدلالي، ولذا يمكن الخلوص إلى تقسيم أكثر دقة في رأيي لوسائل الربط النحوي على هذا الشكل:

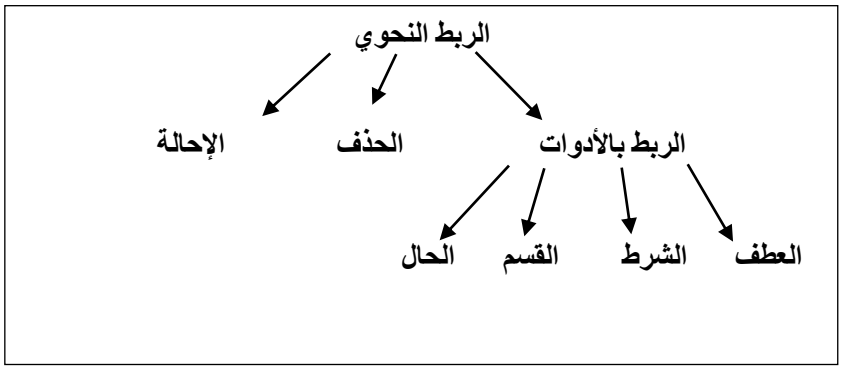

وعليه سيمضي البحث في تتبع أدوات الربط النحوي في رسالة الصاهل والشاحج للمعري مهتديا قاعدة عامة وهي أن المزية ليست بحث القصد والغاية في استعمال رابط دون رابط أو في وسيلة ربط دون أخرى فحسب، بل فيما يخلقه الربط من ظواهر لغوية بارزة كذلك، تبرز حتى تكون كالعلامة الأسلوبية في النص، فيسعى البحث إلى الكشف عنها وبيان أثرها ودورها في الترابط الشكلي. كما يضطرنا اتساع النص إلى تقسيمه إلى جزئين رئيسين تقاسما النص مناصفة هما: قسم إملاء رسالة الشاحج (البغل)، وقسم الجفلة، وتحت القسم الأول تندرج ثلاثة أفرع هي: ١- **مقدمة المعري**، ٢- **الحوار بين البغل والفرس**، ٣- **الحوار بين البغل والبعير**، وتحت القسم الثاني ندرج فرعان هما: ٤- **وصف حال الجالين**، ٥- **وصف عودة الجالين**.

١- الوصف:

يمكن تقسيم المقدمة إلى خمس متواليات جملية تفاوتت في عدد الجمل، فالأولى في (٢٦) جملة وتبدأ من قوله (أسلم على الحضرة العالية...)، والثانية في (١١) جملة وتبدأ من قوله (قد علم الله أني...)، والثالثة في (٣١) جملة وتبدأ من قوله (وأذكر حاجتي قبل أن أبرم فأجرم...)، والرابعة في (١٥) جملة وتبدأ من قوله (وقد وصلوا بهذه الرقعة...)، والخامسة في (٤٤) جملة وتبدأ من قوله (ولهؤلاء القوم أريضة...).

يلحظ في النص من أول وهلة ظاهرة بنائية -بالنظر إلى دور أدوات الربط النحوي فيه- هي توزع الجمل إلى ثلاثة أنماط: نمط الجمل البسيطة، ونمط الجمل الموسعة، ونمط الجمل المتفرعة، وسيتوزع مجال البحث في هذه الأنماط إلى عدة تساؤلات منها: أين برز استعمال كل نمط في المقدمة؟ ولِمَ؟ وما الروابط المستعملة فيها؟ وما مدى تعدد التوسيع والتفريع ضمن الجملة الواحدة (توسيع/تفريع أحادي أو ثنائي أو أكثر)؟ وما الغاية المرجوة من التبسيط أو التوسيع أو التفريع في الجملة؟

وتفصيل هذه الأنماط كما يلي:

١- جمل بسيطة وهي المكونة من جملة واحدة مكتملة الأركان الإسنادية ومكتفية الدلالة فليس ما بعدها من الجمل مرتبط بها من الجهة الإعمالية

---

١) تقع مقدمة المعري في الصفحات من (٨١-٩٢) من الكتاب، وإليها ترد التمثيلات الواردة في هذا الجزء من البحث ولا حاجة إلى ذكر رقم الصفحة مع كل مثال.

النحوية مثل: **(وأنا أمتُّ[1] بحق التخفيف) (والربيعَ أغفلتُ الكمأة، وعند المنهلِ نسيتُ المزادة[2]. كلُّ امرئ يغدو بما استعدَّ)**. وتأتي هذه الجمل مرتبطة دلاليا أي متلازمة لتكملَ فكرة ما، أو منقطعة عما قبلها بالاستئناف، وتكون برابط أو بغير رابط.

٢- جمل موسّعة وهي بخلاف النمط الأول تكون الجمل اللاحقة للجملة الأولى مرتبطة بها تركيبيا ودلاليا (عملا ودلالة) لا يمكن لها الانفكاك عنها، فيشكلان معا جملة طويلة ذات دلالة واحدة مركبة، محتاجة في بناء المعنى وإتمامه لكل أجزاء الجمل المرتبطة بها، مثل: **(أسلمُ على الحضرةِ العاليةِ تسليمَ العاجزِ المقصرِ كما ينظرُ الهادي المدلجُ إلى فرقدِ الليلِ،~ واليمانيُّ المشيمُ إلى سهيل[3])**. فجملة (اليماني المشيم إلى سهيل) معطوفة تركيبيا على جملة (ينظر...)، ودلاليا نجد أن تسليم المعري على الحضرة العالية –بعد أن وصفه بالعجز والتقصير– شبّهه بحالين معبرين لا يُستغنى عن أيٍّ منهما في بناء الصورة المقصودة، فحال المسافر في الليل المظلم ناظرا إلى فرقد الليل مهتديا به كحال اليمانيّ ناظرا إلى النجم سهيل، وكلا الحالين يعبران عن شدة الحاجة وفي الآن نفسه يعبران عن بون شاسع بين المحتاج والمحتاج إليه، ويمثلان عجز الناظر الأرضيّ وتقصيره تجاه/عن المنظور السماويّ، فجاء التوسيع خدمة لهذه الغاية من الوصف؛ لأنه يصوّر المعري على مسافة بعيدة من الحضرة العالية، (حين قابل التسليم بالنظر إلى منظور

---

١) أمتُّ: أتوسل. انظر هامش الكتاب ص: ٨١

٢) المزادة: الراوية. انظر الهامش، ص:٨١

٣) سهيل: كوكبٌ يمانٍ، لسان العرب: مادة سهل

بعيد) ولكنه بعدُ قصورٍ وعجز لا بعدَ استغناءٍ واكتفاء، وفي هذا من دقة المعنى والاحتراس ما لا يخفى.

ويمكن تصور تركيب الجملة الموسعة على النسق التالي:

جملة تامة + جملة مرتبطة لاحقة (توسيع)

٣- جمل متفرعة وهي قريبة من النمط الثاني من جهة عدم الاستغناء، ولكن تكون فيها الجمل اللاحقة قبل اكتمال أجزاء الجملة الأولى وتمام دلالتها، فتشكل الجمل اللاحقة مع الجملة الأولى بنية واحدة مثل: **(ولو كان في الوجذِ فراشةٌ ~و في المحلِ الممحولِ غذيمةٌ -لكُفيت الغافلةُ منْ رماها**[١]**)**. حيث جاءت الجملة اللاحقة (وفي المحل الممحول غذيمة) قبل تمام أسلوب الشرط، فهي جزء إضافي وضروري لبناء الشرط وفرع له، فلو كان في نقرة الجبل الصغيرة ماء قليل، وكان في المحل المجدب عشب يسير لغفلتْ الظبيةُ عمنْ رماها، مشدوهة بما وجدتْ، وجاء المعري بهذا المثل تأكيدا على رأيه في "أن الدرهم يقع عليه اسم المال الكثير"، فالتفريع هنا عنصر رئيس في بناء الصورة، لا تكتمل إلا به.

ويمكن تصور تركيب الجملة المتفرعة على النسق التالي:

جملة غير تامة (بناء أو دلالة) + جملة مرتبطة لاحقة (تفريع) + تمام الجملة

والشواهد على هذه الأنماط حاضرة في كتب اللغويين المتقدمين، فقد انتبهوا لها وعنوا بها، منها ما مثل به الجرجاني على تلازم جملتين

---

١) الوجذ: نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء، ومن معاني الفراشة في اللغة: الماء القليل، والممحول: المجدب، والغذيمة: بقعة من الأرض فيها نبات وعشب. انظر هامش الكتاب ص:٨٩

مترابطتين –قياسا على الشرط والجزاء[١]– وهي من نمط الجمل المتفرعة كقوله تعالى: "**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**"[٢] فإن الشرط هنا لا يتحقق إلا بمجموع حالين أو بتلاحم مستويين من الفعل: الأول حال من يكسب خطيئة أو إثما، وهو يمثل الأثر الذاتيّ المقصور ضررُه على النفس، والثاني حال من يتهم بريئا زورا، وهو يمثل الأثر الغيريّ المتعدي ضررُه إلى الآخر، فلا انفكاك بين الجملتين حاصل إن أُريد فهم جواب الشرط الذي جاء بدوره ليحمّل الجانيَ عقوبتين: الإثم عن الكسب الذاتي، والبهتان عن التعدي الغيريّ، ولذا كانت العلاقة بين جملتي الشرطِ من باب التفريع قبل إيراد الجواب[٣].

ومن الشعر ما ذكره الجرجاني كذلك في معرض استشهاده على تزاوج معنيين في الشرط والجزاء معا، وهو من قول البحتري[٤]:

---

١) انظر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:٢٥٦

٢) النساء (الآية: ١١٢)

٣) ومن أمثلة التفريع قوله تعالى: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ ~وَٱتَّقَوْاْ ~لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ" (الأعراف ٩٦) وقد بسط حماسة عبداللطيف نقاش العلماء واختلافهم في عدد جمل هذه الآية في كتابه: بناء الجملة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة–مصر، طبعة ٢٠٠٣م. ص:٢٧–٢٩.

ومن أمثلة التوسيع قوله تعالى: "أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ~أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ~ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا"٣ فالجملتان اللاحقتان (يرسلَ عليكم حاصبا) و(لا تجدوا لكم وكيلا) معطوفتان بـ(أو/ثم) على الجملة الأولى (أفأمنتم أن يخسف ..) فهما توسعتان لها، والجملة الموسعة كما قدمنا آنفا هي التي ترتبط بما قبلها عملا ودلالة، وظاهر أن العلاقة الحاصلة من التوسيع هنا هي استيفاء صور العذاب وإحاطته بهم أرضا وسماء.

٤) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:١٣٧

إذا ما نهى الناهي ~فلجّ بي الهوى –أصاختْ إلى الواشي فلجّ بها الهجرُ

وتجد أن الشاعر بنى الشرط على ركنين وقابله بركنين في الجواب، فالجملة المتفرعة (فلج بي الهوى) نتيجة للجملة الأولى المرتبطة بها (إذا ما نهى الناهي)، لأن نهي الشاعر عن محبوبته يزيد لجاجة الهوى في نفسه، وقد جعل الشاعر هذه النتيجة كالمسلّمة حين بنى بها ركني الشرط، وجعل تركيزه منصبا على وصف حاله (شرطا) في مقابل حالة المحبوبة التي كانت معاكسة له في الصنيع (جوابا)، ويعلق الجرجاني على هذه النوع من البيان بقوله: «**واعلم أنّ مما هو أصلٌ في أن يدق النظرُ، ويغمضَ المسلكُ في توخي المعاني التي عرفت، أن تتحد أجزاءُ الكلام ويدخلَ بعضُها في بعض، ويشتدَّ ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن يُحتاجَ في الجملةِ إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا...**».[١]

وبالرغم من أن النمط الدارج في الإنشاء اللغوي العربي هو نمط الجمل البسيطة فإن النظر في استعماله بإزاء النمطين الأخريين يستدعي الوقوف عند هذا الاستعمال والبحث فيه؛ لأن الجمل (الموسعة والمتفرعة) تحقق بروزا ملحوظا من مجموع المتتالية الجملية، ويضح أن الربط النحوي في الجمل الموسعة يحقق وظيفة يمكن تسميتها بالتوسيع الخارجي، كما يحقق في الجمل المتفرعة وظيفة يمكن تسميتها بالتفريع الداخلي قبل استيفائها البناء واكتمال الأجزاء والمعنى.

استعمل المعري للربط بين الجمل[٢] ما يوضحه الجدول (١) الآتي:

الربط بأداة الشرط	تكرار الاستعمال	الربط بأداة عطف	تكرار الاستعمال	الربط بواو الحال	الربط بواو الاعتراض	الربط المعنوي بغير أداة
لو	١٠	الواو	١٠٨	موضع	٤	٢١

١) المرجع والصفحة نفسهما

٢) في مقدمته للرسالة.

إذا	٨	الفاء	٣٠	واحد	مواضع	موضعا
إن	٣	أو	٣			
منْ	٢	حتى	٣			
كلما	٢	لكن	١			
		بل	١			

٢- المناقشة:

بلغ مجموع الجمل البسيطة في المقدمة (التي وقعت في ١٢ صفحة من الكتاب وتوزعت على نحو ١٢٦ سطرا): ٩٤ جملة، ومجموع الجمل الموسعة: ٢٧ جملة، ومجموع الجمل المتفرعة: ٧ جمل، واعتمد المعري الربط بالأداة في ١٧٦ موضعا، في مقابل ٢١ موضعا بغير أداة كلها في نمط الجمل البسيطة، وسنفصل القول في نمطي الجمل الموسعة والمتفرعة حسب الجدولين الآتيين:

أ- نمط الجمل الموسعة:

ركن المعري إلى خاصية التوسيع في ٢٧ موضعا، تنوعت في مداها صعودا من توسيع أحادي وصولا إلى التوسيع السداسي باختلاف عدد استعماله كلَّ توسيع (وسنقف على دلالة ذلك في المناقشة) على ما يمثله الجدول رقم (٢):

مدى التوسيع	مثال	الرابط	تكرار استعمال التوسيع
أحادي	١-وأصحاب الراح يتعوذون من مغنٍّ -إذا ارتجل شتم	١-	١٨

	~ وِ إذا سكت صين وأكرم ٢-لا جعلني اللهُ ممنْ -يعدُّ الصربةَ من أفضلِ جنىً ~ وِ يغدو بالخُزَزِ ليضحي به في "منى"[١]	الواو ٢- الواو	
ثنائي	١-فقبّح اللهُ -معزىً خيرُها خُطة ~ وِ شجرًا أطوله التربةُ ~ وِ مؤرثات للضيفان أكثرها ضراما ما يوقده أبو الحباحب[٢] ٢-فإذا سمعتْ صوتَ الحافرِ -هاج ذلك عليها طربًا وحزنًا ~ وِ ذمت إلى اللهِ القادرِ معاشًا لَزَنًا[٣]	١- الواو الواو ٢- إذا الواو	٦
ثلاثي	١-تودُّ بهيمةٌ أصعدتْه لو كانت في سواد ذي القرنين -تحملُ أوتاد خيامٍ أو غيرها من أثقال اللئام ~ وِ تسافرُ من المشرق إلى المغرب	١- لو الواو الواو	١

١) الصربة، محركة: ما يتخير من العشب. ونبت فيه شيء كالدبس يمص ويؤكل. والخزز: ذكر الأرنب . انظر هامش الكتاب ص:٨٣

٢) خطة: عنز سوء، ضربوا بها المثل "قبح الله معزى خيرها خطة". والتربة: نبت لا يطول، والتأريث: إيقاد النار، ومن أمثالهم/ كأنها نار الحباحب وهو رجل بخيل لا يوقد نار بليل. انظر هامش الكتاب ص:٨٧

٣) اللزن، محركة: الضيق والشدة. انظر هامش الكتاب ص: ٩٠

	~ و تُراحُ من هذا البؤسِ الدَّرِب		
رباعي	١-فما بالي ~ و أنا مثقلٌ استعانَ بذَفْنٍ ~ و طفلٌ بَهَشَ إلى يَفَنٍ ~ و ذليلٌ عاذَ بقَرْملةٍ ~ و عبدٌ هتفَ بأَمَةٍ[1]	١- واو الحال الواو الواو الواو	١
سداسي	١-فما برحوا والكاذبُ خائبٌ -يرمون بالسروة ~ و يفتلون في الذِّروةِ ~و يُقرّدون العودَ النافرَ ~و يُزجون ثقالا قُيّدَ فما أُيّدَ ~ و يحدون بأُم الرُّبيقِ على أُريْقِ ~ حتى همَّت النعامةُ بكروعٍ ~ و عزم الضبُّ على الشروع[2].	١- الواو الواو الواو الواو حتى الواو	١

١) اليفن: الشيخ المسن، والقرملة، واحدة القرمل، شجر ضعيف. انظر هامش الكتاب ص: ٨١

٢) السروة: السهم القصير، والذروة: أعلى السنام، بعير ثقال: بطيء. انظر هامش الكتاب ص:٨٧، العَود: الجمل المسن. لسان العرب: مادة عود، يقال فلان يقرّد فلانا إذا خادعه متلطفا. لسان العرب: مادة قرد، وأم الربيق: من أسماء الداهية، وفي المثل: جاء بأم الربيق على أريق= =لسان العرب: ربق، والعرب تقول لمساء السماء إذا اجتمع في غدير أو

ب–نمط الجمل المتفرعة

كانت الجمل المتفرعة أقل الأنماط استعمالا، حيث وقعت في ٧ مواضع، وتفاوتت في مدى التفرع إلى جمل ذات تفرع: أحادي وثنائي وثلاثي وخماسي (وسنقف على دلالة ذلك في المناقشة)، كما يضح من الجدول رقم (٣):

مدى التفريع	مثال	الرابط	تكرار استعمال التفريع
أحادي	**١–وسألوني ~ و المسألةُ حرمةٌ– أن أسألَ السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء في ذلك.** **٢– فما برحوا ~ و الكاذبُ خائبٌ –يرمون بالسروة**	**١–واو اعتراض** **٢–واو اعتراض**	٢
ثنائي	**١–ولو كان في الوجذ فراشة ~** **و في المحل الممحول غذيمة –لكفيت الغافلة من رماها والجازئة من استماها.**	**١–لو** **الواو**	١
ثلاثي	**١–يأملُ هؤلاء الحسْكلُ ~و الأملُ ساحرٌ ساخرٌ~و ربما وُجِدَ هو الصادق ~و له نوعان: هذا خالبٌ وهذا للمطر جالب –أن يصيبهم نفعٌ من تلك السهمة[١].**	**١–واو اعتراض**	٢

مساكٍ: كَرَعٌ. لسان العرب: مادة كرع، ومشرعة الماء وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس. لسان العرب: مادة شرع.

١) الحسكل، كجعفر: واحد الحساكل: الصغار، والسهمة بالضم: القرابة والحظ والنصيب أيضا. انظر هامش الكتاب ص: ٨٤، البرق الخلّب: الذي لا غيث فيه، كأنه خادع يومض حتى تطمع بمطره ثم يخلفك. لسان العرب: مادة خلب

	٢-فاستحييتُ أن أكلفهم في اليوم القصير لُمَاسات وَرُوبٍ ~و يسألوني شهلاءَ هي في العمر كالبدرِ في الهالة ~و القراب في الخلةِ ~و المتقاربِ في الدائرة -فأردّهم عنها مكبوتين[1].	الواو الواو ٢-الواو الواو الواو	
خماسي	١-ولو جاء رجلٌ في طِمري بِرْسٍ أو سملِ فراريٍّ ~أو عاريا لا يصل إلى الطرائدِ ولا الهيبِ، يتلهف على مَنْقل أو سميط تُحذى له من أُم الهُنَيْبرِ أو غيرها من الهِنَّبر ~و يعتمدُ على خوّارة كأنها منسأةُ الميت ~و لديه الجنُّ العاملة ~و فيه من الأدب والعلمِ بعض ما في السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراءِ خلد الله أيامه -خنعتُ له بالعظمة والترفيل[2]. ٢-فإذا حمل أمرها -على ما ظهر من اللفظ العربي في الكتاب الكريم من قوله عزت كلمته: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم" ~وعلى ما جاء في الحكاية عن النملة: "يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا	١-ولو أو الواو الواو الواو ٢-فإذا الواو	٢

١) لماسات: الحاجات الملتمسة، والورب: وجار الوحش، والشهلاء: الحاجة، والقراب: جراب السيف، والخلة، بالكسر والتضعيف: جفن السيف، والمتقارب: البحر من بحور الشعر ينفرد في الدائرة الخامسة من الدوائر العروضية. انظر هامش الكتاب ص: ٨٥

٢) الهيب: الخرق، والطرائد، جمع طريدة: خرقة تبل ويمسح بها التنور، والفرار: ولد النعجة والماعزة، والمنقل: الخف، والسميط: الجلد الرديء، والهنبر: الجحش، وأم الهنبر: الأتان، وخوارة: عصا ضعيفة، والمنسأة: العصا، والترفيل: الخيلاء. انظر هامش الكتاب ص: ٨٦، الطمر: الثوب الخلق. لسان العرب: مادة طمر، سمل: الخلق من الثياب. لسان العرب: مادة سمل

	يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون" ~وعن الهدهد في قوله تعالى: "إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم" ~فجائز أن تضمر هذه البهيمة ~أو تقول باللسان ما لا يفهمه كل إنسان –من كلام معناه: رب صلف تحت الراعد.	الواو الفاء أو	

١– يظهر في النص كثرة الاعتماد على نمط الجمل البسيطة، ثم الاعتماد على التوسيع في مقابل التفريع، وفي نمط الجمل الموسعة برز التوسع الأحادي في مقابل المديات الأخرى حيث تكرر (١٨ مرة)، وهذه المظاهر (أي كثرة استعمال الجمل البسيطة، وبروز التوسع الأحادي) يمكن تسويغها بأنها تجري مجرى المتوقع والعادة في الكلام؛ لأن منشئ الكلام يدرك بأن تماسك النص وترابطَ جملِهِ دلاليا يزيدان بالقرب (خطيًّا) والتحديد (كميًا)، كما أنه يوافق طبع القارئ المحتاج إلى تصور المعنى بأقل جهد وأقصر طريق، بخلاف ما يحتاجه القارئ والكاتب كلاهما في حالتي البعد والتعديد من مراعاة للربط وشد الجمل إلى بعضها وتمكّنِ المعنى قبل استئناف الكلام إلى غيره. فانظر إليه حين يقول: " **قبل الرماء تملأ الكنائن. فـــماذا يصنع من لا كنانة له؟**"، وقوله: "**قد أضاء الصبح لذي عينين. فـهل يضيء لمن لا عينين له**" تجد أن ترابط الجملتين على أشد ما يكون حيث لا انفكاك ممكنا بينهما؛ لأن التقديم بالمثل العربي يستدعي من الملتقي تصور حال معينة: هي في الأولى حال من عليه الأخذ بأسباب المواجهة وعدّ العدة لها، وفي الثانية حال من لا يحتاج إلى أكثر من عينين في رأسه لرؤية الحقيقة، فجاءت الجمل اللاحقة لتستثني المعري من انطباق المثل عليه؛ دفعا للحرج واعتذارا بالعمى، وهو من بعد هذا التوسيع الأحادي ليس بحاجة إلى مزيد بيان.

وهذا البروز لنمط التوسيع الأحادي يفسر تنوع أدوات الربط وتنوع الجمل فيه، حيث استعمل المعري عددا من حروف العطف: الواو (٥ مرات)، والفاء (٢)، حتى (٢)، لكن (١)، بل (١)، واستعمل عددا من أدوات الشرط: إذا (٢)، وإنْ (٣)، وكلما (٢)، ولو (٢)، ومَنْ (٢). وجاءت الجمل في غالبها فعلية: (٥) جمل فعلية، و(١٠) جمل فعلية شرطية، بينما الجمل الاسمية كانت ثلاث جمل فقط (١- **أصحابُ الراح يتعوذون من مغنٍ إذا ارتجل شتم ←و إذا سكت صين وأكرم/٢- وإنما هي الزُّهَرَةُ في الأُفُق ←و الوضيعةُ في الشُّقر / ٣- ومن الفند أن يسألَ نعمان في بريرة ←و يلتمسَ من رياض الحَزْنِ إنباتُ الزَّهرة**).

بينما لم نجد تنوع الأدوات هذا في مديات التوسع فوق الأحادية، بل كان الربط فيها قائما على أداتين مختلفتين في كل مرة[١]، مع التزام أن تكون الأداة البادئة للتوسيع أداة شرط أو واو حال، فجاءت التوسيعات المتعددة على هذا النسق: (**أداة شرط + عطف بـ و/أو**) في ست مرات (لو+و) و(لو+و) و(لو+أو) و(إذا+و) و(إذا+و) و(لو+و+و)، وفي مرة واحدة على نحو: (واو حال+و+و+و).

وخرج عن هذا الالتزام (بتنويع أداة الربط) في موضعين، اكتفى فيهما المعري للتوسيع باستعمال حروف العطف فقط، مستعملا في موضع حرفَ الواو (و+و)، وفي موضع حرفي الواو وحتى (و+و+و+و+حتى+و)[٢]، والأرجح أن التزام المعري واعتماده على أداة ربط سابقة مع (و) العاطفة راجع لكونها من الأدوات مشتركة الدلالة، حيث يمكن أن تكون لعطف المفردات أو لعطف الجمل، كما تكون

---

١) مجموع التوسيعات فوق الأحادية ٩

٢) انظر التوسيع السداسي في الجدول رقم ٢ أعلاه.

للاستئناف كذلك، بخلاف أداة الشرط وواو الحال المختصتين بمعنى محدد لكلٍ منهما، فالركون إلى أداة العطف (الواو) وحدها في التوسيع لا يدفع -بالضرورة- احتماليةَ القطع والخروج عن نمطية الجمل، وبالتالي لا يدفع احتمالَ وجود لبس في الدلالة، وتعثّر في التصور بحكم الدلالات المشتركة لها؛ ولذا قلّ الاعتماد عليها منفردة، واحتيج إلى وسيلة ربط سابقة يكون الاعتماد عليها لأجل بناء المعنى التام، ومعلوم أن الشرط بما فيه من خاصية الربط اللفظي (الأداة)، والدلالي (تلازم الشرط وجزائه) يحقق هذا الأمر.

وقريب من هذا الالتزام ما ظهر في الجمل المتفرعة، حيث اعتمد المعري على أداة الشرط وواو الاعتراض قبل واو العطف في غالب المواضع[١]، والاعتراض له مزية القطع من خطية النص دون التأثير على بناء الدلالة، فمهما طالت الجمل المعترضة يبقى القارئ أو السامع مشدودا إلى ما يكمل به الجملة قبل الاعتراض؛ لأنه عند قراءتك قول المعري: "**يأملُ هؤلاء الحسْكلُ ~و الأملُ ساحرٌ ساخرٌ~و ربما وُجِدَ هو الصادق ~و له نوعان: هذا خالبٌ وهذا للمطر جالب -أن يصيبهم نفعٌ من تلك السهمة**" تجد أن الفعل (يأملُ) لم ينفك يطلب مفعوله بالرغم من استطراد المعري في اعتراضه، وذهابه إلى وصف الأمل وتفريعه وذكر نوعيه، فالمعنى لم يكتمل إلا مع قوله (أن يصيبهم نفع من تلك السهمة).

٢- يلحظ من الجدول رقم (٢) أن تعدد مدى التوسع يقوم على علاقة عكسية مع طول الجمل، فتجد أن الجمل تقصر دَرَجًا عند التوسيع الثنائي فصاعدا إلى التوسيع الثلاثي والرباعي، وصولا إلى التوسيع السداسي

---

١) خرج عن التزام البدء بواو اعتراض أو أداة شرط في مرة واحدة فقط من مجمل حالات التفريع. انظر التفريع الثلاثي في الجدول رقم(٣).

حيث كانت فيه أقصر ما يكون، وليس الأمر كذلك في التوسيع الأحادي فقد تطول الجملتان: الأولى واللاحقة، أو تقصران، أو تطول إحداهما وتقصر الثانية؛ ومرد ذلك إلى قرب العهد بالجملة الأولى فلا يجد المؤلف ضرورة لمراعاة موضع الجملة الأولى من خطية النص كما هو ملزم بذلك في التوسيعات الأخرى، يقول المعري في أحد المواضع: **"ولو جعلتُ شجر الكافور والألوَّة قوتًا للنارِ أوقدتها مَهَنَتُه في الصَنْبَر تدفعُ بها قِرَةَ ذاتِ وَبْرٍ ~أوهمتني المحبّةُ أني قد ونيتُ"**[1] ويقول في موضع آخر: **"ولكن حملني أطيطُ الحاسةِ وعلمي بكرمِ الشيمةِ على النهضة بغير جناح ~وركوبِ الصعبةِ بلا أحلاس"**[2] فنلحظ أن المعري أطال بناء الجملة الأولى (لو جعلت شجر الكافور وألوة قوتا للنار) أن ألحقها بجملتين واصفتين للنار (أوقدتها مهنته في الصنبر) (تدفع بها قرة ذات وبر)، ولم يجد حاجة لاستعمال رابط لفظي؛ لأن الوصف محدِدٌ وقيدٌ في الجملة وليس عنصرا إضافيا يمكن أن يستقل، فليس التطويل هنا من قبيل التفريع بإضافة حالة شرط جديدة كأن نقول: (لو كان كذا وكان كذا لحصل كذا)، وإنما هي جملة شرط واحدة، سوغ التطويل فيها أن جوابها مشدود إليها مهما ابتعد، ويكون التطويل لغاية، تظهر في الجملة نفسها، أو بالنظر إلى السياق الواردة فيه، وإذا أمعنا النظر إلى هذه الجملة نجد الغاية من الوصف فيها بيان شدة الاحتياج للنار في وقت البرد الشديد،

---

١) رسالة الصاهل والشاحج، ص: ٨٣، الألوة، بفتح الهمزة والواو مشددة: العود يتبخر به، والمهَنة، جمع ماهن وهو العبد والخادم، والصنبر: شدة البرد، وذوات وبر: أيام برد العجوز.

٢) نفسه، ص:٨٥، أطت له رحمى تئط أطيطا: رقت وتحركت، والأحلاس، جمع حلس: كساء يوضع تحت البرذعة.

ومن باب أولى يوحي ذلك بعظم الحاجة للشجر لإيقاد النار، والمعري برغم تقديمه أنفسَ وقود للنار مستخلص من شجر الكافور والعود ذي الرائحة الطيبة فإن جواب الشرط كان (أوهمتني المحبة أني قد ونيت)؛ لأن الجملة وردت في سياق بسط الاعتذار وإظهار التقصير.

ومثل ذلك ما يظهر في المثال الثاني في قوله (لكن حملني أطيط الحاسة وعلمي بكرم الشيمة على النهضة بغير سلاح) فطول الجملة الأولى جاء من العطف على الفاعل والحامل على النهضة (أطيط الحاسة وعلمي بكرم الشيمة) وهو من عطف المفردات، ووقع التوسيع في نتيجة هذا الحمل حيث أدى إلى حالين هما: النهضة بغير سلاح، وركوب الصعبة بلا أحلاس. ويكفي الرجوع إلى أمثلة التوسيعات فوق الأحادية لملاحظة قصدية المؤلف في التقليل من طول الجمل فيها[١]؛ ويرجع ذلك في رأيينا إلى أن كل توسيع في الجملة يعد عنصرا مضيفا ورئيسا في إنشاء الصورة وبناء الدلالة العامة من الجملة، فالمؤلف ملزم بمراعاة تكوّن أجزاء التصور جميعها في ذهن الملتقي، وربما كان التطويل غير متناسب مع التوسيع أو أصبح عائقا ومشوشا للمعنى. ولذلك نجد المعري مقتصدا في طول التوسيع، ومراعيا للتوازن في مثل قوله من التوسيع الرباعي: "**فما بالي ~و أنا مثقلٌ استعانَ بذَقْنٍ ~وطفلٌ بَهَشَ إلى يَفَنٍ ~ و ذليلٌ عاذَ بقَرْملة ~ و عبدٌ هتفَ بأَمَةٍ**" لأن عنايته

---

١) لاحظ الجدول رقم ٢ أعلاه، ومما يمكن ذكره قوله من التوسيع الرباعي: (فما بالي ~وأنا مثقلٌ استعانَ بذَقْنٍ~ وطفلٌ بَهَشَ إلى يَفَنٍ ~ وذليلٌ عاذَ بقَرْملةٍ ~ وعبدٌ هتفَ بأَمَةٍ) وقوله من التوسيع السداسي: (فما برحوا والكاذبُ خائبٌ ~يرمون بالسروة =

= ~ ويفتلون في الذِّروةِ ~ويُقرِّدون العودَ النافرَ ~ويُزجون ثقالا قُيِّدَ فما أُيِّدَ ~ ويحدون بأُم الرُّبيقِ على أُريْقِ~ حتى همَّت النعامةُ بكروعٍ ~ وعزم الضبُّ على الشروع)

الأولى هي بناء صورة كليّة عن فكرة القصور المركّب غير البسيط، ويتحقق ذلك فيمن يستعين على عجزه بأعجز منه، فاكتفى ببضع كلمات في كل توسيع تحقق له هذه الغاية، وتتموضع جميعها في توازن يستوفي مظاهر العجز المعروفة عند الناس (البعير المثقل والطفل والشيخ المسن والذليل الخائف والعبد والأَمَة)، ويستوفي التركيب المنضبط (خبر للمبتدأ المحذوف (أنا) +فعل+حرف جر +اسم مجرور). ويظهر من ذلك كله أن التطويل بحد ذاته لا يحتل موقعا عند المعري إلا إن كان يخدم غاية أو ينجز مطلوبا.

٣- إن ما يجب العناية به بعد هذا العرض والتحليل لهذه الظاهرة اللغوية البارزة في الاستعمال هو البحث عن الغاية والوظيفة المتحققة من الاعتماد عليها، مما يتطلب تدقيقا في السياق الذي وردت فيه هذه الاستعمالات؛ ولذا سنتتبع سياقاتها وسنقف عند بعض منها بما يسمح بإطلاق حكم يشملها.

يقول المعري في مقدمة كلامه: «**ولو كنتُ بالغا في الأدب أطوريَّ، لكنتُ في تلك الحضرةِ كالقطرةِ تحت الصبير**[١]**، ~والحصاةِ إلى جانب ثبير، فما بالي وأنا مثقلٌ استعانَ بذَقْنٍ، ~ وطفلٌ بهَشَ إلى يَفنٍ، ~ وذليلٌ عاذَ بقَرْملةٍ، ~وعبدٌ هتفَ بأَمَة**»[٢] نلحظ أن المعري يمضي في تحقير نفسه إلى أقصى غاية، رافعا من مقام مخاطبه في الوقت نفسه، لقصد الاعتذار عن رفضه المتكرر لدعوات عزيز الدولة له لحضور مجلسه -كما يظهر من المقدمة- وكانت الجملة الأولى كافيةً مبينةً عن المعنى غانيةً غناء تاما؛ لإنه حتى إذا ما كان المعري بالغا أعلى

١) «الصبير: السحاب الأبيض الذي يصبر بعضه فوق بعض درجًا، والصبير: السحاب يثبت يوما وليلة ولا يبرح كأنه يُصْبَرُ أي يحبس» لسان العرب/ مادة صبر

٢) رسالة الصاهل والشاحج، ص: ٨١

درجات الأدب في عصره –وهو كذلك– محتلا قمته، فهو لا يعدو أن يكون قطرة لا يرجى منها خير أمام السحاب الأبيض عظيم المطر، والمقصود بالسحاب هنا عزيز الدولة، أو هو كمثل الحصاة توضع إلى جانب جبل من جبال مكة المشهورة بالعِظم لا يكون لها وزن بإزائه والجبل العظيم هو عزيز الدولة، لكن هذه الجملة البليغة على كفايتها لا ترضي المعري، فكأنه توقع أن يقال له: لكنك مدحتَ نفسَك من طرف خفيّ بأنك بلغت في الأدب الحد الذي لا شيء بعده، فاستدرك محترزا مستنجدا بأوصاف الضعيف العاجز يطلب العون والمثوبة ممن هو أضعف منه وأعجز (كالبعير صاحب الحِمل الثقيل يستعين بذقنه للنهوض، والطفل يستنجد بالشيخ الهرم، والذليل يلوذ بالقرملة وهي الشجر الضعيف ينفضخ إذا وطئ، والعبد يستغيث بأمَةٍ هي في حقيقة الأمر أضعف منه). **فغرض الاحتراز** هنا استدعى من المعري إطالة النفس في بناء الصورة والتريث في اختيار عناصرها حتى تخرج مستوفية حقها كاملا، لا تسمح أن يؤتى المعري من جهتها.

على أن غرض الاحتراز ليس بغريب على المعري فهو بادٍ وشائع في كتبه، وليس بغريب على من سبقه من أدباء وكتّاب، فقد اعتادوا على ملاحظة القارئ وتواصوا بينهم على أن يجعل المؤلف القارئ نصب عينيه حين ينشئ الكلام، مراعيا حاله ومتوقعا هجومه أو سخطه أو رضاه، وللجاحظ –الذي يجلّه المعري– كلام يوصي فيه الكتّاب ويحذرهم من القارئ العدو يقول: «**وينبغي لمن كتب كتابا ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالمٌ بالأمور، وكلهم متفرغٌ له**»[١].

١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، وضع حواشيه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص: ١/٦٠.

ويقول المعري في موضع آخر وهذه المرة مستعملا نمط الجمل المتفرعة، وتحديدا من مدى التفريع الخماسي: «**ولو جاء رجلٌ في طِمري بِرْسٍ أو سملِ فراريٍّ ~أو عاريا لا يصل إلى الطرائدِ ولا الهيبِ، يتلهف على مَنْقل أو سميط تُحذى له من أُم الهُنَيْبرِ أو غيرها من الهِنَّبر ~و يعتمدُ على خوّارة كأنها منسأةُ الميت ~و لديه الجنُّ العاملة ~و فيه من الأدب والعلمِ بعض ما في السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراءِ خلد الله أيامه –خنعتُ له بالعظمة والترفيل**» يعنى المعري في هذا الموضع ببناء صورة مكتملة الأجزاء ليحقق غرضا فيه أبلغ عبارات الإجلال والإعظام لعزيز الدولة، وهو غرض موافق للمسار الذي اتبعه في المقدمة خصوصا وفي الرسالة كلها عموما.

المعري هنا يقر بالعظمة لرجل من صورته أنه ذو خِرقٍ بالية وأثواب ممزقة أو هو عارٍ، يتلهف على خفٍ مرقعٍ رديء مُتخَذٍ من جلد أتان أو جحش، يعتمد على عصا ضعيفة لا تكاد تحمله، وهذا الوصف لو وصف به أحدٌ فهو لا شك ممن لا يستحق أن يقام له وزن ولا أن ينظر له لحقارته، فبمَ استحق مَنْ هذه صفته أن يُخنع له بالعظمة والترفيل؟، يجيب المعري بأن هذا الرجل فيه بعض ما في السيد عزيز الدولة من أدب وعلم وفهم، وبسبب هذا المقدار اليسير من المشابهة نال الرجل تقديرَ المعري وإجلاله، فتطلُّبُ تحقيقِ **غرض الإجلال والإعظام** لسيف الدولة دفع المعري إلى أن يرسم صورة ذاك الرجل بتؤدة وصبر، مستوفيا أجزاءها، جامعا أوصاف الحقارة فيه بالتدريج لكي يصل أخيرا إلى الحكم بأنه بالرغم من صورة الرجل الشائهة فإنه مستحق لأبلغ مظاهر الإجلال والتعظيم لحمله بعض ما لدى عزيز الدولة من أدب وعلم.

ومن جملة الأغراض التي ظهرت في مقدمة المعري **إظهارُ العجز والتقصير**، فتراه يقول واصفا إصرار أبناء أخيه عليه بالكتابة إلى عزيز الدولة: «**فقبّح اللهُ –معزىً خيرُها خُطة ~وشجرًا أطوله التربةُ ~ومؤرثات للضيفان أكثرها ضراما ما**

يوقده أبو الحباحب» وهنا يستعين المعري بأمثال العرب، ذاكرا أبلغ ما وصفوه بالحقارة والضعة، منوعا بين مواضيعها من حيوان ونبات وإنسان، فلا أحقر من المعز أكثر من الخُطة، وهي عنز السوء، ولا أوضع من الشجر أكثر من التربة، وهي النبت الذي لا يطول؛ فكأنه مساو للتربة، ولا أقبح مثلا في البخل من نار أبي الحباحب الذي قيل بأنه لا يوقد نارا بليل، واستيفاؤه بناء هذه الصورة جاء لغرض إظهار عجزه وتحقير نفسه أمام مقام الحضرة العالية لعزيز الدولة.

ويعمد المعري في مواضع إلى استعمال الجمل الموسعة مع عدد من نمط الجمل البسيطة لاستيفاء وصف ما، كما فعل حين احتاج إلى **تصوير شقاء الدابة** التي تعمل في أرض أبناء أخيه حيث قال: «**تودُّ بهيمةٌ أصعدتْه لو كانت في سواد ذي القرنين -تحملُ أوتاد خيامٍ أو غيرها من أثقال اللئام ~وتسافرُ من المشرق إلى المغرب ~وتُراحُ من هذا البؤسِ الدَّرِب**»[١] فهي تتمنى أن تكون في جيش ذي القرنين، تُحمل عليها عدة الجيش من أوتاد وجنود، وتكون في سفر غير منقطع، يتنقل من مشرق الأرض إلى مغربها، وتتحمل هذا العذاب كله رغبة في الراحة من العذاب التي هي فيه، وقد بيّن المعري في السياق ألوانا من صور عذابها كتكلفها تصعيد الماء من أريضة مجدبة مريضة (كأن ماءه المنتزع كافر محتقر، غفر له بعد ما مسته سقر، فقد عولي به من أسفل سافلين إلى أعلى عليين)، وربما غار ماؤها وفني، ولا يكتفي القدر بعذابها في شقاء العمل يومها كله، بل يقدر لها أن تكون عمياء، وفوق هذه العذابات يُستأجر لها غلام شرس يسوقها بالعصا ذات العُقَد، يمزق جلدها تمزيق الكتان.[٢] ومن السهل إدراك علة طول نفس المعري في وصف شقاء الدابة، وتركيزه على بناء تصور عن عذابها لأنه

---

١) انظر الرسالة ص:٨٩-٩٠

٢) راجع وصف الدابة المفصل في الصفحة ٩٠ من الكتاب، وبعدها بقليل بدأ المشهد الحواري بين البغل والفرس.

المعتمد الذي قامت عليه الرسالة؛ لأن الغرض من بدء الحوار بين الشاحج (البغل) والفرس هو رغبة الشاحج في إيصال مظلمته إلى عزيز الدولة يشكو فيها العنت الذي يلاقيه ويستنقذه من العذاب، ولذا تحقق المعري من استيفاء وصف الدابة وتبيين حالها باستعمال نمطي الجمل الموسعة والبسيطة.

٤- لنا أن نقرر -بالنظر إلى مجمل الأمثلة المتقدمة أعلاه أو المذكورة في الجداول- أن هناك غاية كبرى حاصلة من مجموع استعمالات نمطي الجمل الموسعة والمتفرعة عند المعري هي **استيفاء بناء الوصف والصورة**، فقد استغل المعري -لتحقيق هذه الغاية الكبرى- خصائصَ هذين النمطين من الجمل بالتوازي والتعاضد مع نمط الجمل البسيطة، منوعا بعد ذلك في الأغراض التفصيلية مع اختلاف المواضع والسياقات؛ لأننا نجد المعري ماضيا بعزم وقصد إلى أقصى حد في تتبع الحالات المحتمل نشوؤها في ذهن القارئ، فكأنه حين يقيم جملة مبيْنة يفكر بما قد يعتريها من نقص، أو ما قد يلحقها من قصور في ذهن قارئ خالي البال أو مغرض؛ فيُتبعها جملة أخرى أو جملا تستوفي بناء الوصف فيها وتكمل صورتها، ولهذه الغاية الكبرى هدف آخر أيضا، وهو تصوير المشاهد ذات التفاصيل الدقيقة والكثيرة وظهر ذلك في أكثر من موضع، كما في مشهد وصف الرجل الذي فيه بعض ما في عزيز الدولة من أدب وفهم وعلم، وفي مشهد وصف عناء الدابة وعذابها[١]، وهو يمضي على هذا النهج على طول الرسالة، ولكن بروزها في المقدمة دليل على استقرارها في ذهنه ووعيه بها، ويختلف بعد ذلك الغرضُ من التوسيع والتفريع في كل موضع.

---

١) شُرحت هذه المواضع في الكلام أعلاه.

ثانيا: الربط بالأدوات في محاورة الشاحج والصاهل

ضم هذا الفرع مشهد المحاورة بين الشاحج والصاهل، ووقع في الصفحات من (٩٢–٢٠٦) من الكتاب، ويمثل هذا المشهد منطلق الرسالة–الكتاب[١] الفعلي بعد التهيئة التي جاءت في المقدمة، حيث أنهى المعري المقدمة بذكر شواهد من القرآن على حديث الحيوان جاءت بلسان النمل والهدهد، واعتمادا على المعنى المتضمن من قوله تعالى: "**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**"[٢].

وكان اللقاء الذي جمع الصاهل بالشاحج هو الدافع لمسار الرسالة–الكتاب بطولها؛ لأن البغل الشاحج رجا الفرس الصاهل أن يوصل رسالة منظومة إلى حضرة عزيز الدولة، مفادها أنه يعاني العنت والظلم من بني البشر، ويأمل من عزيز الدولة تخليصه من دائرة العذاب التي علق فيها، وتفرعت المحاورة إلى نقاش قضايا كبرى عدة، تحوي في تفاصيلها مسائل دقيقة، منها الفكرية كقضية قسوة البشر على الحيوان، وساقَ أمثلة كثيرة من ألوان جنايتهم عليها، ومنها اللغوية كمسألة نظم الحيوان للشعر، والتفاضل بين الشعر والرجز، والعلم بالأصوات.

اتبع المعري في هذا الفرع ما اتبعه في المقدمة من استعمال أنماط الجمل الثلاثة، وعلى المنوال نفسه من اعتماد الروابط النحوية بين الجمل كالعطف والشرط والحال والاعتراض، ودفعا للتكرار سنمثل على نمطي الجمل المتفرعة والموسعة

---

١) سنقيد من هنا كلمة الرسالة بالكتاب تمييزا لها عن الرسالة التي يريد الشاحج إرسالها إلى عزيز الدولة يشكو فيها مظلمته.

٢) الأنعام، الآية (٣٨)، ذكرها المعري مع آيتي النمل: ١٨، ٢٣. انظر ص:٩١

المستعملة في هذا الفرع، مع التركيز على ما يمكن عده تنويعا جديدا في الأسلوب.

وصف المعري صنع غلام صغير استعار البغل من صاحبه؛ ليركب عليه مع الوِلدان، وهذا الوصف مجموعة جمل مقتطعة من مشهد تفصيلي لهذه الحادثة المؤسفة التي لاقى فيها البغل أشد العذاب، حتى بلغ به الأمر أن عزم على رفس الغلام –رفسةً تلحقه بعاد وثمود– لولا خشية الباري، وخشية أن يفجع أمه به، يقول على لسان البغل: "**فدخل فحلَّني من المربط، وذهب فركبني بأغباش الليل، ووضع فيَّ مَرَةَ سوطٍ أو صدرَ وَبيل. فلما فُرِق بين الشبحين، ~و انتشر أضواُ الصُبحين، ~و خرج الفتيانُ على دوابهم، –جعل يحثّني بالضربِ لأُحضِرَ كإحضار الخيلِ الجامَّة والشواحج المودعة، ~وهو على ظهري مثوِّبٌ: ويبكَ أما تخبُّ؟ ويبك أما تُقرِّبُ؟...**"[1]، في هذا المقطع الوصفي تضافرت أنماط الجمل الثلاثة بانسجام؛ لبناء مشهد توزع إلى حركة سريعة وحركة بطيئة، فنمط الجمل البسيطة شكل السرد السريع في خمس جمل:

فدخل	فحلّني من المربط	وذهب	فركبني بأغباش الليل	ووضع فيّ مرةَ سوط أو صدر وبيل

وشكل نمطا الجمل المتفرعة والمتوسعة السرد البطيء في جملة طويلة متفرعة تفريعا ثلاثيا، وجملة حاليّة موسعة توسيعا أحاديا:

متفرعة: شرط وجوابه	**فلما** فرق بين الشبحين / **و**انتشر أضواُ الصبحين / **و**خرج الفتيانُ على دوابهم	**جعل** يحثني بالضرب ... المودعة

١) أغباش: جمع غبش بالتحريك وهو بقية الليل أو ظلمة آخره، والوبيل كأمير: العصا الغليظة، ومثوب: صارخ، والإحضار والتقريب: سرعة العدو. انظر الرسالة، ص:٩٩

موسعة: حاليّة	**و** هو على ظهري مثوب: ويبك أما تخبُّ؟ ويبك أما تقرّبُ؟

وبين السرعة والبطء يظهر اهتمام المعري بتأكيد صورة العذاب وعنايته بها، فأحداث بداية المشهد مرت سريعا بالرغم من كونها في الواقع المعاش مما يستغرق وقتا طويلا، ففيها الدخول إلى البيت، ثم التوجه إلى المربط وحل البغل منه، ثم الذهاب به ليلا مع ما يتطلبه السير ليلا من تأنٍ وتمهل وتوجس وترقب، لكن عناية المعري منصبة إلى التهيئة لما بعد هذه المقدمة، لذا تباطأ السرد وطالت الجملة الشرطية، ودخلت محددات ثلاثة في تكوينها (فُرق بين الشبحين، وانتشر أضوأ الصبحين وخرج الفتيان على دوابهم)، وهذه المحددات تقيم سياقا زمانيا دقيقا ومفصلا؛ ندركه حين نحاول وضع مقابل إجمالي، فلو كانت الجملة: (فلما طلع الصبح)، لم تقدم التصور المطلوب؛ لأن دلالة الصبح عامة وممتدة، بخلاف ما اختاره المعري وشدد عليه، حيث اعتنى بوصف دقيق لحالة بين الظلام وبداية الضياء، فيها تمايزٌ بين الشخصين (البغل وراكبه)، ولا يتمازج شبحاهما كما يحدث في الظلام، وفيها تأكيدٌ على البكور الشديد الذي يصعب فيه على الحيوان المشي وبذل الجهد، فكيف بمن يطلب من بغل في مثل هذا الوقت أن يعدو بسرعة كعدو الخيل، ولا يكتفي الغلام العارمُ بالضرب، بل يتبعه بالصريخ والدعاء على البغل بالويل إن هو لم يخبَّ كخبب الخيل النشيطة. وهذا الانسجام بين الأنماط الثلاثة من الجمل وما يضفيه من تناوب بين السرعة والبطء السرديين جاء مقدمة لعرض مفصل وطويل وقع في ١٩ سطرا، يصور عناءً لقيه البغل من هذا الغلام، يضاف إلى جملة عذابات يشتكي من جرائها إلى الفرس، راجيا أن يرق له ويقبل بإبلاغ رسالته إلى حضرة عزيز الدولة.

وتأكدت قصدية المعري في استعمال الأنماط الجملية في موضع آخر من هذا الفرع حسب ما يتوزعه الجدول أدناه:

الشرط	تفريع (خماسي) للشرط	جواب الشرط	توسيع (ثنائي) للجواب
وإذا نظرتُ البقاعَ الموسومةَ بعين أو عينين	**و** صار الحائلُ من الأمكنة نظيرَ الحولاء **و** أصبح أثرُ الأعمى الدارِ كالعبقرية على الضرير **و** رَغِبتْ الراعيةُ في قربِ المجنونِ **و** خَبطَتْ حوامي المنعلةِ ما حَمَاه من الشَّقْرِ أبو قابوس **و** رَعَتْ الكوادِنُ الشُّقْرُ ما يُشبِهُ نبتَ المَعرَفة من الشَّقراء وذلك من النصيّ المعلولِ[1]	فحَوافِري من العَفْرِ غُبْرٌ –إنما تَقَعُ بغبراءَ منَعها القَدَمُ والسنبُكُ من النباتِ	**و** جحافِلي من عُضّ المِصْرِ مُتَقَرِّيات **و** أعمامِي من القُمْرِ الوحشيةِ ورِبائِطِ الأَهلِ كأَن جحافِلَها من الخُضْرةِ مُسبَداتُ المُقتَبَلين[2]

١) الحائل من الأمكنة: الذي مضى عليه حول لم ينبت، والحولاء: المخصبة، وأعمى الدار: السيل، والعبقري هنا: ضرب من البسط، والضرير: حرف الوادي، والمجنون: ما جنت به الأرض من نبت وزهر، والحوامي: ما عن يمين الحافر وشماله، والشُّقر: شقائق النعمان، والكوادن الشقر: البراذين البيض، والمعرفة: موضع العرف، والنصي والمعلول: النبت المروي مرة بعد مرة. انظر هامش الرسالة ص:١٠١

٢) العفر: التراب، والسنبك كقنفذ: طرف الحافر، والجحافل جمع جحفلة: بمنزلة الشفة للإنسان، والعض: النوى المرضوخ وعلف الإبل من يابس الحشيش، والمصر هنا: الطين الأحمر، ومسبدات المقتبلين من: سبد شارب الغلام، إذا ابتدأ ينبت بعد الحلق. انظر هامش الرسالة ص:١٠١ وكلمة (القمر) في قوله (أعمامي من القمر) هنا لا وجه لها والأرجح أنها تصحيف في الطباعة لكلمة الحُمْرِ بدليل وصفها بالوحشية في مقابل الأهلية،

وبعد هذه الجملة المفرعة–الموسعة جملة أخرى مباشرة على الغرار نفسه، يقول فيها:

الشرط	تفريع (ثلاثي) له	الجواب
وإذا لاح الشَّرطانِ في السُّدفةِ،	**و** اختلفتْ أصواتُ المطوَّقاتِ **و** هاجتْ أشجانُ المتشوقاتِ **و** ذكَّرتْ الشيخَ الدالفَ بعصور الفتيانِ والشمطاءَ الهِمَّةَ بعيشِ الفتيات	ذكَّرتني أزمانَ أنا فَلْوٌ خَلْفَ المُقرِفةِ أرتضعُ ضاويين مِثلَ القُرطَينِ[1]

والمواضع الثلاثة يضمها السياق الذي ينعى فيه البغلُ نفسه، ويذكر ألوانا من العذاب الذي يمارسه كل يوم، ففي الموضع الأول يؤكد على العذاب الجسماني وقد تقدم تفصيله، بينما في الموضعين الثاني والثالث يصف العذاب النفسي؛ وفي الموضع الأول منهما يصور البغل ما يشعر به من قهر وغبن؛ لأنه لا يجد ما تطيب به نفسه من طعام بينما تنعم البهائم الأخرى، فهو يتحسر على حاله حين تخصب الأرض، ويتحول المكان المجدب إلى الخضرة، وينزل السيل، وتفرح الراعية بالنبت والزهر، وتتخبط ذوات الحافر بشقائق النعمان، وترعى البراذين البيض نباتا ذا ماء وافر، والبغل مع كل هذا الخير لا يَقَعُ ولا يُتركُ أن يقعَ إلا على أرض مغبرّة لا ينبت فيها شيء، أهلكتها الأقدام والسنابك الجارية فيها، ليس

وبدليل قوله: أعمامي، ومعلوم أن أعمام البغل الحمير وأخواله الخيل؛ ولذا لم تحتج المحققة لشرح معناها في الهامش لوضوحها.

١) الشرطان: نجمان يقال لهما قرنا الحمل، والسدفة: الظلمة، والمطوقات: الحمام، والهمة: العجوز المسنة، والهم: الشيخ الفاني، والمقرفة: الهجين، والضاويان مثل القرطين: يقصد بهما ثديي أمه. انظر الرسالة، ص:١٠١

له منها إلا اغبرار الحوافر، ويتوسع في إمعان الحسرة ذاكرا أن جحافله (وهي ما يقابل الشفة في الإنسان) متضررة من العلف اليابس الشائك، وأنه يرى الحمر الوحشية والأهلية منعّمة، قد حسن حالها واخضرت جحافلها.

وفي الموضع الثاني من وصف العذاب النفسي، يستذكر البغل أيام كان خلوا من أي عذاب، منعما عند أمه، وقد هيج هذه الذكريات اللطيفة إلى نفسه جملةُ أحوال، جمعها في جملة شرطية مفرعة، وهي أنه يستدعي صور هنائه وأشكال هزله إذا ما لاح النجمان في الظلمة، واختلطت أصوات الحمام مع اختلاط الظلمة بالضوء، وهاجت الأشجان في كل ذي شوق، وتذكر الشيخ الدالف[1] ريعان شبابه ونشاطه، وذكرتْ العجوز المسنة أيام صباها، وهذه الذكريات على لطفها تثير الأسى والحزن في قلبه بفعل المقارنة بين حاليه الآن وآنذاك.

والتزم المعري طريقة التفريع بالاعتماد على الشرط وجوابه في هذه المواضع الثلاثة وفي غالب المواضع في الفرع الأول من النص المتضمن مقدمة الكتاب، حيث استعمل:

١- في الموضع الأول (فلما)، وفرّع على الشرط بجملتين بالاعتماد على حرف العطف (الواو)، ثم وسع جواب الشرط بواو الحال،
٢- وفي الموضع الثاني استعمل (إذا)، وفرّع على الشرط بخمس جمل مستعملا حرف العطف (الواو)، وكان الجواب مصدرا بـ(الفاء)، ثم استعمل (الواو) كذلك في التوسيع بجملتين،
٣- وفي الموضع الثالث استعمل (إذا) كذلك، وفرّع على الشرط منها بثلاث جمل باستعمال حرف العطف (الواو).

---

١) الدّلف والدّليف والدّلفان: مصادر دَلَفَ يدلِف: وهي مشية فيها سرعة وتقارب خطوٍ كما يمشي المقيّد. جمهرة اللغة، مادة (د ف ل) ص:٦٧٢.

لكن المعري في هذا الفرع من الرسالة–الكتاب غيّر هذه الطريقة في موضع واحد، حيث اعتمد فيه على نمط للجمل المترابطة لا يقوم على رابط ظاهر، كما هو في جميع المواضع السابقة، بل هو ترابط معنوي يستند إلى الطلب وجزائه، فجاءت الجمل يشد بعضها بعضا في سياق متصل ضمَّ ثماني جمل على النمط نفسه، وهي متتالية من النصائح موجهة من البغل لخاله الفرس حين لم يجد فيه بشاشة لحمل الرسالة، يقول:

"اسقِ نُغْبة من صُفْنِكَ ⟵ يُقيّضْ لكَ ربُّك مَن يملأُ مزادتَك[١]
وأطعِم المُقوِيَ ثَمرةً من دَجُوبك ⟵ يحفظْ ربُّك حائشَك[٢]
وأعِنْ حاطِبَكَ بالشَّبَمِ ⟵ يُعْظِمْ نارَك[٣]
وانصر المظلومَ بالكلمةِ ⟵ تُنْصَرْ باليدِ واللسانِ
واغذُ البائنَ ⟵ أكنْ مُعلِّيكَ[٤]
وكن السابقَ ⟵ أُدْعَ مُصَلِّيَك[٥]
وأَعِرْ الجازِرَ مُدْيةً ⟵ يُطْعمْكَ من أطايبِ الجَزور
وأعْطِ المُورِدَ مَرَسًا ⟵ يَرْوِ غَنَمَك"[٦]

---

١) النغبة: الجرعة، والصفن بالضم: وعاء من أدم مثل السفرة، يستقي به أهل البادية. انظر الرسالة ص:١٠٥

٢) المقوي: الذي نفد زاده، والدجوب، كصبور: الوعاء والغرارة، والحائش: جماعة النجل. انظر المرجع والصفحة نفسهما

٣) الشبم، بالتحريك: البرد. انظر المرجع والصفحة نفسهما

٤) البائن: من يأتي الحلوبة من قبل شمالها، والمعلي، اسم فاعل: من يأتي الحلوبة من قبل يمينها. انظر المرجع والصفحة نفسهما

٥) المصلي: التالي للسابق، والألف فيه واوية. انظر المرجع والصفحة نفسهما

٦) المرس: الحبل، وسمي مرسا لكثرة مرس الأيدي إياه. كتاب العين: مادة مرس، ٥٣/٧

وتقوم هذه الجمل المترابطة على تلازم الطلب وجزائه، وهو تلازم يشبه ما بين الشرط وجوابه من جهة حاجة طرف للطرف الثاني، ولكن يختلف عنه في المدى الممكن للإطالة والتفريع والتوسيع، وذلك راجع لقوة الربط ودرجته في كلٍ منهما؛ لأن الطلب لا يحتمل ما يحتمله الشرط من إطالة أو ابتعاد في خطية النص عن الجواب، فالرابط المادي الظاهر المتشكل في الجملة الشرطية مستند إلى الجواب مهما بعد عنه، ويمكن تصويره باستناد حقيقي بين شيئين لا غنى لأحدهما عن الآخر، أما الرابط المعنوي الحاصل بين الطلب وجزائه فهو أقل قوةً مقارنة بالشرط؛ لذا يستدعي مباشرةَ الجزاء في التموضع الخطي للجملة، والدليل على وهن الرابطة في الطلب هو إمكان انفصالهما عن بعضهما، فلا مانع عقليا من استقلال جمل الطلب في الأمثلة السابقة –وفي غيرها– عن جزائها، فتقول مثلا: (اسق نغبة من صفنك، وأطعم المقوي ثمرة من دجوبك، وأعن حاطبك بالشبم، وانصر المظلوم بالكلمة، واغد البائن، وكن السابق، وأعر الجازر مدية، وأعط المورد مرسا)، لأن الجزاء في كل هذه الأمثلة يمثل تحضيضا على الفعل وإغراء لحصوله، وإمكان الاستقلال لا يعني عدم الترابط في واقع الجمل، فالترابط متحقق هنا نحوا ودلالة، لكن ما نريد التدليل عليه هو الفرقُ في قوة الربط بين الطريقين، وتميزُ كلا المسلكين عن الآخر في الغاية المتحققة من الاستعمال، لأننا نجد أن نمط الطلب والجزاء جاء في موضع واحد ولغرض يتطلبه السياق، وهو مقام الحث والتحضيض، وتمثل هذه الجمل المترابطة دعوة لطيفة للفرس تكون أدعى للموافقة على سؤال البغل إياه، بينما نجد أن وراء استعمال المعري للشرط في المواضع السابقة من توسيع وتفريع هدفا وصفيا دقيقا يعتني بالتفصيل، واستغلال ذلك لنقل مشاهد ولقطات وخوالج نفسية وسياقات خارجية كثيرة، ومن هنا برز طروق هذا المسلك كثيرا (نعني الأنماط الموسعة والمتفرعة من الجمل)، وهو ما ينسجم مع السردية الوصفية الناظمة للنص كله.

خاتمة

تناول هذا المطلب عناصر الربط النحوي بالأدوات في رسالة الصاهل والشاحج، وخصوصا في المقدمة التي جعلها المعري اعتذارا عن عجزه وتقصيره تجاه الحضرة العالية لعزيز الدولة، وذكر فيها سبب تكلفه كتابة رسالة بعد إلحاح أبناء أخيه، وكانت تهيئة لسرد جوهر القصة والحوارات التي جاءت في رسالة الصاهل والشاحج.

وعناصر الربط بالأدوات بين الجمل محل البحث كانت أدوات: العطف والشرط والقسم والحال، ووجدنا أن استعمال المعري لها جاء على تفاوت، واستثمر المعري هذه الأدوات في استعمال أنماط من الجمل، اعتمد عليها لبناء صور تعبيراته وملاءمة أجزائها، ولبيان معانٍ متنوعة وأغراض مختلفة، وهي: نمط الجمل البسيطة، ونمط الجمل الموسعة ونمط الجمل المتفرعة مع اختلاف مدى التعدد في كل استعمال، وكان النمط الأول أكثر بروزا، وهو بذلك مجارٍ للوضع الطبيعي لمستعملي اللغة، حيث يتطلع السامع والقارئ أبدا لتمام المعنى، وهما مشغولان بشد الكلام إلى بعضه، فكلما كانت الجمل مترابطة الدلالة متقاربة البناء كان ذلك أدعى لفهم أوضح وأقرب لزوال اللبس.

كما يمكن ملاحظة ظاهرة أسلوبية تركيبية عند المعري وهي أنه يركن إلى الشرط والاعتراض حيث يريد التوسيع والتفريع؛ مستندا إلى ما في الشرط من خاصية ربط لفظية ودلالية، ولما في الاعتراض من خاصية قطعٍ من خطية النص من دون إخلال بالبناء.

وحققت الجمل الموسعة والمتفرعة والبسيطة مزية الترابط النحوي في النص، حيث جاءت متلازمة ومتعاضدة تتغيّا غاية رئيسة إجمالية هي **استيفاء بناء الوصف والصورة**، يهدف المعري من ورائها إلى تمكين معنى مجمل، وسد خلل

محتمل، مستفيدا منها لتحقيق أغراض تفصيلية تتنوع باختلاف المواضع في النص، وكان من جملة هذه الأغراض: الاحتراز، والتعظيم، وإظهار العجز، والتحقير، إلى غير ذلك من الأغراض.

المصادر والمراجع

- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ١٩٩٩م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، وضع حواشيه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
- الجرجاني، عبدالقاهر، دلائل الإعجاز، شرح وتخريج ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
- الجرجاني عبدالقاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، نسخة صححها وعلق عليها السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت–لبنان، غير مؤرخ.
- الخباص، جمعة، نظام الربط في النص العربي، كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع–مصر، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.
- الداودي، زاهر بن مرهون، رسالة دكتوراه بعنوان: الترابط النصي بين الشعر والنثر نصوص الشيخ عبدالله بن علي الخليلي أنموذجا دراسة تحليلية مقارنة، مقدمة لكلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية، كانون الأول ٢٠٠٧م.
- الزناد، الأزهر، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، طبعة أولى ١٩٩٣م.
- السكاكي، أبو بكر محمد، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى: ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

- بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي– بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
- دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ–٢٠٠٧م.
- زيد، فضل يوسف، دراسات نحوية ودلالية ونصية في القرآن الكريم، دار النابغة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ–٢٠١٦م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل–بيروت، الطبعة الأولى.

١. **ناعوس، بن يحيى، تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص دراسة تطبيقية في سورة البقرة، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراة إلى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب واللغات والفنون بجامعة وهران، سنة جامعية ٢٠١٢\٢٠١٣م.**